

"حرب الخطايا" التي نزعت أوراق التوت!

صباحي غندور*

لقد اختلف في توصيف الحرب على العراق، وما زال الاختلاف قائماً. فالإدارة الأميركية وصفتها بحرب "الحرية العراقية"، أمّا الحكم العراقي السابق فقد أطلق عليها اسم "حرب الحواسم". وفي المحطات الفضائية العربية اختلفت التسميات: "الحرب على العراق"، "حرب الخليج الثالثة"، "العراق في مهبط الحرب" ..
ولعلّ هذه التسميات حملت كلها ضمناً حقيقة من حقائق هذه الحرب. لكن، أليست تسمية "حرب الخطايا" هي الأصحّ والأدقّ لوصف هذه الحرب؟

خطايا أميركية:

لقد وضعت واشنطن أهدافاً لهذه الحرب، من أبرزها:

- إزالة أسلحة الدمار الشامل.
- تغيير النظام وإقامة حكم ديمقراطي في العراق.
- تأمين الأمن لأميركا والعالم.

إنّ كلاً من هذه الأهداف عانى من عدم جدية المصادقية ومن عدم مشروعية الأسلوب، إضافة لعدم وجود مرجعية دولية لقرار الحرب.

إن واشنطن، لأول مرة في تاريخها، مارست غزواً عسكرياً لبلد عربي. فالوجود العسكري الأميركي السابق في لبنان وفي الصومال، والحالي في منطقة الخليج وبلدان عربية أخرى، كان حصيلة اتفاقات وبطلب من حكومات كل بلد.

أيضاً، أميركا خاضت هذه الحرب وإدارتها مجبولة بكثير من الأشخاص الذين أطلقوا تصريحات ومواقف أوجدت حذراً وخوفاً حتى لدى أشدّ أصدقاء أميركا في المنطقة .. تصريحات ومواقف اختلط فيها ما هو تدخل في شؤون البلدان وثقافتها وأنظمتها .. مع التطابق بين مواقف هذه الإدارة وحكومة شارون، بل إنّ هذه الحرب حصلت في وقتٍ تستمرّ فيه حكومة شارون بعدوانها الإجرامي على الشعب الفلسطيني، هذا العدوان المتصاعد منذ ربيع العام الماضي دون أيّ تدخل دولي فاعل وفي ظلّ دعم أميركي سياسي سافر لهذه الحرب الشارونية ..

.. هذه هي البيئة السياسية التي خاضت أميركا الحرب فيها، وهذا هو المناخ الذي يحيط بالمنطقة كلها، فكيف إذا أضفنا إليه ما هو قائم في العالم عموماً من انتفاضات شعبية ورسمية ضدّ نهج التسلّط والهيمنة الدولية الذي يحكم هذه الإدارة الأميركية منذ مجيئها!؟

وكانت هذه الحرب كافية لتسقط ورقة التوت عن مشروع الهيمنة الدولية الذي تحمله الإدارة الأميركية الحالية.

لكن أميركا خاضت قبل الآن حروباً كثيرة في العالم، خارج العراق والمنطقة العربية، ومارست ما هو أفظع ممّا حدث أو قد يحدث في العراق .. من القنابل النووية في اليابان التي تجرّأت على قصف بيرل هاربر/إلى حرب فيتنام وإخراج الحليقة فرنسا منها ومن أجل الوصول لحدود روسيا الشيوعية آنذاك/ إلى اقتلاع نظام نورينغا في بناما بعد أن رفض تجديد العقد مع أميركا حول قناة بناما/إلى الحرب على صربيا وإسقاط نظام ميلوسوفيتش/ إلى اقتلاع نظام طالبان في أفغانستان.

أي ليست هذه هي المرة الأولى التي تقوم بها أميركا بحروبٍ ضدّ دول وتغيّر أنظمة فيها: حروب شملت شرق آسيا وأميركا الوسطى وأوروبا والشرق الأوسط، وكلها كانت عملياً لأهداف ومصالح أميركية، ومعظمها دون مرجعيات دولية، ولم تميّز فيها أميركا بين بلد مسيحي أو مسلم أو بوذي.

خطايا النظام الصدامي:

كان بإمكان الحكم العراقي الصدامي أن يستيق الحرب، ومنذ نوفمبر/تشرين الثاني الماضي، بوضع دستور جديد للعراق وبإقامة انتخابات حرة يدعو إليها مراقبين دوليين وعرب، وبإشرافٍ من الأمم المتحدة.

وكان بإمكان نظام حزب البعث العراقي التخلي التدريجي عن السلطة لصالح الشعب العراقي المضطهد في ظلّ هذا النظام لأكثر من ثلاثين عاماً خلت.

الحكم العراقي، منذ انقلابه العسكري عام ١٩٦٨، خاض معارك الصدام مع أكثر من طرف، وفي مراحل زمنية مختلفة. هو الذي قام بحملة سياسية وإعلامية واسعة ضد مصر عبد الناصر عام ١٩٧٠، وقبل أشهر قليلة من وفاة جمال عبد الناصر. هو الذي بدأ في مطلع السبعينات بتصفية وملاحقة العديد من القيادات الفلسطينية المعارضة لحكم بغداد. هو الذي قرّر عام ١٩٧٣ عدم المشاركة في حظر النفط على الغرب. هو الذي ساهم في إشعال الصراع على الساحتين اللبنانية والفلسطينية خلال أتون الحرب الأهلية اللبنانية، ونقل دعمه المالي والعسكري فوق أرض لبنان من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين. هو الذي بدأ الحرب الطاحنة لثمان سنوات مع إيران، تلك الحرب التي استنزفت العراق عسكرياً ومالياً واقتصادياً إضافة إلى ما حصده من مئات ألوف الضحايا في الجانبين؟ هو الذي قام بغزو كامل لدولة الكويت عام ١٩٩٠، واحتلال لها استمرّ عدة أشهر، ونتج عنهما ما نتج من تشريع المنطقة للتدخل الأجنبي والوجود العسكري الأجنبي في معظم دول المنطقة، ناهيك عن عزل شعب العراق وفرض الحصار عليه، وتهديد كيانه الوطني بالشرذمة والتقسيم!

ألم يكن الواجب عليه أصلاً إعلان تحمل المسؤولية والاستقالة من الحكم وإلغاء كافة الأعداء الدولية لمزيد من التدخل الأجنبي ولتجنب مزيد من الهدم والدمار للحجر والبشر في العراق أولاً؟. ألم يكن تاريخ أكثر من ٣٠ سنة للنظام البعثي الصدامي كافياً لكي يحمل هذا الحكم عصاه ويرحل عن أكتاف شعب العراق، كان ممكناً أن يحصل التغيير في العراق، وبالاجتهاد الصحيح الذي يحفظ الشعب العراقي ويصون له وحدته وسيادته، قبل أن تفرض واشنطن هذا التغيير بالاتجاه الخاطئ المشروم للعراق، المدمر لإمكاناته، والمستبجح لسيادته؟ لكن النظام أختار مصالح رموزه حتى اللحظة الأخيرة من عمره، وعلى حساب شعب العراق والأمة العربية كلها.

وكانت هذه الحرب بمثابة الضربة القاضية التي أسقطت النظام كما أسقطت ورقة التوت عن رموزه الذين اختاروا الهرب والاختفاء والذوبان بين ليلة وضحاها.

لقد كانت أسباب هذه الحرب متعددة مثلما كانت الحرب اللبنانية في أواسط السبعينات والتي دخلت فيها جملة عوامل، وكان لها عدة صفات، كما كانت حصيلة عدة أسباب. فالبعض وصف الحرب اللبنانية بحرب (أهلية طائفية)، وبعض آخر وصفها بحرب (تحرير لبنان من الغزاة)، والبعض الآخر اعتبرها حرباً إسرائيلية لتقسيم لبنان واحتلاله أو حرب أميركا - كينسجر لتميرير المعاهدة الإسرائيلية المصرية ولعربنة الصراعات العربية... لكن الكل كان يجمع على أنّ تركيبة النظام السياسي اللبناني كانت هي المسؤولة عن توفير المناخ المناسب للتدخل الخارجي وللعوامل السلبية الخارجية. ألم يكن ذلك حقيقة قائمة أيضاً في الحالة العراقية وما كان فيها من مسؤولية للنظام السياسي في العراق ولما قام به من حروب وممارسات داخلية وإقليمية؟

فالحرب لم تكن بين خير وشر، بين حقّ وباطل، بل كانت غزواً وأسلوباً باطلاً على بلد حكمه بالباطل من قام بدوره بعدوان على شعبه وجيرانه. فما يبني على خطأ لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج صحيحة .. هذه الحرب بُنيت على أخطاء. والمستهدف فيها - أي الحكم في العراق - كان هو أيضاً صاحب تاريخ جرى بناؤه على أخطاء ..

لقد كانت حروب الخليج الثلاث بمثابة حرب واحدة بفصول ثلاثة: الفصل الأول مع إيران. الفصل الثاني في غزو الكويت. الفصل الختامي بالحرب التي أنهت النظام البعثي الصدامي في العراق. هي حربٌ واحدة بفصول ثلاثة، ارتبطت فيها نتائج حظر النفط عام ١٩٧٣، مع الثورة الإيرانية وتحديها لأمريكا، مع سقوط الاتحاد السوفيتي وسعي واشنطن للهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية على العالم ككل.

لكن، هل كان تحول أميركا من داعم كبير لنظام صدام حسين في حقبة الثمانينات إلى مواجه له فيما بعد، يعني أن يكون ذلك مبرراً للوقوف مع هذا النظام كما فعل بعض المنظمات والشخصيات العربية؟ فكيف نفسّر في هذه الحال موقف جمال عبد الناصر الذي وقف ضدّ نظام حكم عبد الكريم قاسم في العراق عام ٦١ حينما هدّد بغزو الكويت، وكانت بريطانيا أشدّ أعداء مصر عبد الناصر آنذاك تقف ضدّ نظام عبد الكريم قاسم أيضاً وحول الموضوع نفسه إضافة إلى علاقة قاسم مع المعسكر الشيوعي؟

فحرب العام ٢٠٠٣ كانت مزيجاً من خطايا ممارسات وحروب الماضي بالنسبة للحكم العراقي، وخطايا حروب الحاضر وسياسات الماضي بالنسبة للإدارة الأميركية، وهذا المزيج من الخطايا لن يولد أية نتائج صحيحة، لا للعراق وللعرب ولا لأميركا وللعالم ..

حرب الصدمات الكبرى!

وهل صحيح أنّ الحرب على العراق هي بمثابة هزيمة كبرى للأمة العربية؟ أولاً يفترض أصحاب هذا القول أنّ الأمة كانت في وضع طبيعي (إن لم نقل على حال من النصر) ثمّ جرت هزيمتها!؟

وهل صحيح أنّ سقوط النظام في العراق هو أيضاً سقوط للعراق؟ ألا يفترض القائل بذلك أيضاً أنّ العراق كان "مرتفعاً" في ظلّ النظام السابق بحيث جاء سقوط النظام سقوطاً للعراق!؟

أيضاً وأيضاً، صحيح أنّ الاحتلال الأميركي الآن للعراق هو بداية الهيمنة الأميركية على المنطقة؟ أولاً يُفهم من هذا القول أنّ المنطقة كانت، قبل ذلك، خارج هذه الهيمنة سياسياً واقتصادياً بل حتى أمنياً وعسكرياً!؟

ثمّ صحيح أنّ الاحتلال الأميركي للعراق يعني إسقاطاً للشرعية الدولية .. أين كانت إذن هذه الشرعية خلال العام الماضي حينما اجتاحت قوات الاحتلال الإسرائيلي مدن وقرى الضفة الغربية وارتكبت المجازر ضدّ الشعب الفلسطيني واعتدت على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس؟

أيضاً، لمّ ظهرت الصدمة الكبرى على أوجه وكتابات العديد من المحللين السياسيين والكتّاب العرب عقب السقوط العسكري السهل لبغداد، وكانهم كانوا يراهنون على صمود النظام السياسي في العراق بل على الأمل باستمراره رغم ما قام به هذا النظام من استبدادٍ داخلي ضدّ العراقيين، بمختلف مناطقهم وطوائفهم ومذاهبهم، ومن عدوانٍ خارجي على جيرانه العرب والمسلمين ..

هذه التساؤلات لم تجد بعد الإجابات عنها رغم مرور فترةٍ من الزمن كانت كافية لكي تبدأ المنطقة العربية، وبكلّ فعالياتها الرسمية والشعبية، بالنقد الذاتي بل بالإصلاح الذاتي الذي دونه لن تستقيم حال الأمة العربية ولا أوضاع أوطانها.

فالإعطاب على مستوى الحكومات والمعارضات ما زالت مستمرة، والمواقف الخاطئة تتكرر، والمراهنات الخاسرة تتجدّد منذ نهاية حرب الخليج الثانية، والتداعيات السلبية ما زالت تسير من سيءٍ إلى أسوأ .. فلا يمكن مواجهات تحديات الخارج ما لم يخرج الداخل العربي نفسه من حال الجمود والعجز والانقسام.

المدخل لمستقبل عربي أفضل هو الإصلاح السياسي الذاتي لأنظمة الحكم ولمؤسسات المعارضة.

٢٠٠٣/٥/١٤

• مدير "مركز الحوار" - واشنطن
alhewar@alhewar.com